

الجنس ليس إلا لغة في كتابات محمد زفزاف الروائية

عباس ك. ب.

باحث في قسم اللغة العربية، جامعة كاليفورنيا

توطئة

على الرغم من كون الجنس في السرد العربي القديم والحديث شكلاً جزءاً حيويًا في سياق المعالجة الأدبية، وتزخر كتب التراث بحكايات وتفسيرات وتحليلات ووقائع وأحداث جنسية، كما تحفل الرواية العربية منذ ظهورها أواخر القرن التاسع عشر وخلال القرن العشرين بأعمال تعالج الموضوع الجنسي، إلا أنه في الفترة الأخيرة شكل عنصرًا أساسيًا وباتت الرواية بشكل خاص والشعر أيضًا، لكن بدرجة أقل، تحتفي به احتفاءً جوهريًا حتى لا تكاد تخلو رواية أو قصة قصيرة من التعامل معه، وفي هذا التحقيق نضطر إلى إيجاد إجابة راضية ومرضية 'مع زيادة مساحة الجنس في الأدب العربي الحديث وخاصة الرواية كيف تقيم أسباب اتساع هذه المساحة، وبشكل عام كيف ترى العلاقة بين الأدب والجنس؟ وجاءت الروى متفاوتة، تكشف عن تعدد النظرة للجنس ومعالجته في الأدب الحديث(١). بناءً على القضية المطروحة مقدمة هذه الدراسة تسعى إلى كشف وظيفة الجنس الظواهر اللا أخلاقية السائدة في الأدب العربي المغربي وخاصة في كتابات محمد زفزاف السردية .



دوماً يطرح القارئ هذا السؤال لماذا يكتب الكاتب هذه الفصائح الجنسية؟ وما جدواها في الأدب؟ ولماذا لا يستعمل الكاتب قاموساً مهذباً؟ وهذه الأسئلة تطرح من نظريتنا نحو الأدب. وذلك بأن الأدب ينبغي أن يكون مثاليًا خالصًا وصافيًا من كل الشوائب التي يعيشها المجتمع . ومع ذلك لدى القراء نفاق مخلص في موقفهم من مطالعة هذه الكتابات الأدبية المحشوة بالفصائح الجنسية والقاذورات الأدبية. يقرأها الجميع ويتمتع بها، ولكن لا يسعى إلى تأويلها الإيجابي، بل ينقدها بما فيها من السلبيات. في هذا الصدد تقول الكاتبة المغربية لطيفة لبصير، "منذ زمن ليس باليسير صدرت رواية (الخبز الخافي) للروائي المغربي الشهير محمد الشكري(٢) والتي أحدثت ضجة على مستوى تلقيها، فهي رواية تحكي عن الشذوذ الجنسي وتعود مباشرة من ضمير المتكلم إلى حياة قذرة عاشها الكاتب، إلا أن طرحها لم يقابل بالقبول مع العلم بأنها حققت تلقياً جيداً" إذ إن الكل رفض هذا العمل والكل يقرؤه. ومن هنا التساؤل الحقيقي: كيف تتم قراءة عمل أدبي ورفضه في نفس الآن؟ وكيف يتناغم هذان الشرطان: الرفض والخلو في القراءة؟"(٣)

١ محمد الحمامصي : الجنس لغة إنسانية والمهم أن لا يكون شعاراً أو تجارة أو مراهقة روائية. ٢٠١٢. ١٠. ٨.

<http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=175695>

٢ محمد شكري (1935-2003م) من الروائيين المغاربة. تحفل نصوص محمد شكري بصور الأشياء اليومية وبتفاصيلها الواقعية وتمنحها حيزاً شعرياً واسعاً، على عكس النصوص التي تقوم بإعادة صياغة أفكار أو قيم معينة بأنماط شعرية معينة. شخصيات شكري وفصائحات نصوصه ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالعيش اليومي. ويعتبر شكري "العالم الهامشي" أو "العالم السفلي" قضية للكتابة، فكتابات تكشف للقارئ عوالم مسكوت عنها، كعالم البغايا والسكارى والمجون والأزقة الهامشية الفقيرة، وتتطرق لموضوعات "محرمات" في الكتابة الأدبية العربية وبخاصة في روايته الخبز الخافي أو الكتاب الملعون كما يسميها محمد شكري. تحتل مدينة طنجة حيزاً هاماً ضمن كتابته، فقد كتب عن وجوها المنسية وظلمتها وعالمها الهامشي الذي كان ينتمي إليه في يوم من الأيام.

٣ د\ لطيفة لبصير : "الرواية المغربية : ظواهر لا أخلاقية بقاموس أخلاقي" الإمارات الثقافية 'مجلة شهرية تعني بشؤون الثقافة

والفكر' العدد ١ مايو ٢٠١٢ ' ص ١١٥

الجنس ظاهرة سائدة في الكتابات الأدبية مهما كانت أجناسها في أيامنا هذه لدى جميع الكتاب كما أشرنا إليه آنفاً. وفي هذه القضية، تمت دراسات ونقاشات حارة لدى النقاد والأدباء العرب. ويجدر بالذكر هنا موقف العلاء الأسواني (١)، الروائي المصري من تضمين الجنس في الكتابات الأدبية. بالنسبة إليه أن الجنس لغة (٢) من اللغات.

الجنس كلغة عند محمد زفزاف

محمد زفزاف (١٩٤٢-٢٠٠١) كاتب مغربي متمرس استطاع أن يرتقي بالأدب المغربي القصصي إلى مكانة عالية. فإنتاجه كثير متنوع، ويدل على التحول داخل الخطاب القصصي المغربي. ويلقى إنتاجه قبولا لدى القارئ المغربي بكل مستوياته المعرفية، وقبولا لدى القارئ العربي، والقارئ في أنحاء العالم، ما يثبت ذلك انتشار نتاجه وترجمته إلى أكثر من لغة عالمية حية. وقد عمد العديد من الكتاب في الأدب العربي إلى الدخول في العالم السفلي للمجتمع بحكم أنه يمثل المجتمع الحقيقي بكل رقوده اللغوي ورداءة قاموسه. وهنا نستعيد روايات الكاتب المغربي محمد زفزاف وما تعكسه من شذوذ مجتمعي مثل (بيضة الديك) و (محاولة عيش) و (المرأة والوردة) إلى غيرها من النصوص الروائية، وهي نصوص تؤرخ للمجتمع المغربي وتسعى إلى تغيير ما تراكم فيه من نتائج للفقر والتهميش وما ترتب على ذلك من انحطاط.

ومن لفت النظر اعتبار الخلفيات البينية التي عاشها الكاتب الكبير محمد زفزاف. ولذا من الطبيعي أن يحفل قاموسه بالعديد من الكلمات القذرة التي تعكس المدن السفلى، إذ كيف يتم الحديث عن أنماط مجتمعية تعاني من الازمحلل بقاموس نظيف يقدم مثالية كبرى تكون غير مقنعة أدبيا. وفي الجملة ليس محمد زفزاف بالوحيد الذي اتخذ الجنس أو الظواهر اللا أخلاقية لغة في كتاباته الأدبية للتعبير عما يحدث في المجتمع المغربي من المغامرات الجنسية أو اللا أخلاقية. وفي رواية محمد برادة (٣) "حيوات متجاوزة" نجد العديد من تسميات الذكر والفرج مستحضرة ضمن سياق الرواية، بحيث ينقل الروائي نوعا من الحفلات الماجنة التي يعقدها الأصدقاء فيما بينهم، والتي تحررهم من الرغبات الجنسية ومن الحياة الرتيبة، كلغة أخرى لغة المجون والسكر والانفتاح على أجساد بعضهم بعضا والبحث عن اللذة والإغراق فيها. ويبدو أن الكاتب يستحضر هذا العالم لينقل تاريخا موجودا في حيوات بعض الأفراد والذي يشكل تصورا

١ طبيب أسنان وأديب مصري. يكتب القصة القصيرة والرواية، ولد في 26 مايو 1957، عضو في حركة كفاية المعارضة في مصر. ومن رواياته المشهورة " شيكاغو " و " عمارة يعقوبيان ".

٢ ويقول العلاء العسواني " في رأيي... الجنس لا يستعمل إلا كوسيلة للكشف الإنساني... فلا يمكن أن تتفاعل مع الشخصيات الروائية دون أن تتطرق إلى مشاكلها الجنسية والنفسية وهذا واضح مثلا في علاقة أحمد دنانة عميل المباحث ومروة في روايتي شيكاغو، فالأدب فيه كشف إنساني وليس فيه تورية... أما طارق وشيماء في شيكاغو أيضا فهما يحملان كل عقد المصريين الجنسية، ماذا نريد من شاب وصل عمره إلى ٣٦ سنة ولم يلمس امرأة وأول مرة لمس امرأة بكى... هذه حالة إنسانية تلفت نظري فالجنس عندي شيء إنساني وليس هدفا في حد ذاته ولم يكن المحرك الرئيسي للأحداث، كما كتب آخرون رغم احترامي لرايهم.. ولكن البحث عن الشرف كانت هي الفكرة الرئيسية، فالجنس جزء من حياة الناس وهو جزء ليس بقليل وخصوصا في العالم العربي. لقد حاولت في كتابتي لبعض التفاصيل الجنسية في شيكاغو وقبلها يعقوبيان مثل العلاقة التي ربطت بين الحاج عزام وزوجته أن أكتبه بطريقة غير جارحة للذوق الأدبي والحياء وأمامنا الله سبحانه وتعالى في وصفه لعملية جنسية في سورة يوسف عندما يقول (وغلقت الأبواب، وقالت هيت لك... قال معاذ الله، صدق الله العظيم) ففهمنا انهما يقفان في قاعة كبيرة ومن شدة التوهج الجنسي والشيق أخذت امرأة العزيز تجري ناحية الأبواب وتغلقها واحدا تلو الآخر.. أنا لست ضد الجنس ولكن لا بد من كتابته بطريقة راقية وان يكون موظفا، والضجة التي أثارت قبل سنوات بشأن عدة روايات جنسية كان الناس فيها على حق لأن كتابها كانوا يقصدون التهيج فقط وكان الجنس مقررزا للعناية. إن الجنس بالنسبة إلي لغة، فاللغات الإنسانية كثيرة ومتعددة ولا نعرف منها إلا لغة الكلام، فالنظرة لغة إنسانية والصمت لغة إنسانية وأحيانا نرى اثنين متزوجين منذ سنوات طويلة وبعد فترة صمت لا تتفاجأ إن قالت الزوجة لزوجها وما الذي يغضبك الآن؟ لأنه وبعد هذه السنوات تعلم كل منهما إدراك شعور الآخر حتى في لحظة الصمت وأيضا، الجنس لا يمارس من أجل الشهوة فقط وإنما من الممكن أن يمارس من أجل إظهار أحاسيس جميلة وأحيانا يمارس من أجل السيطرة أو كنوع من العقاب أو تفرغ التوتر، وبالتالي انظر إليه كلغة إنسانية والفرن لا يجعلك تسقط في الابتذال ولك أن تكتب ما تشاء بفرن وبالتالي لا تسقط في الابتذال..

٣ محمد برادة (١٩٣٩-٢٠١٠) روائي ونقاد مغربي. يكتب القصة والرواية، كما يكتب المقالة الأدبية والبحث النقدي، وله في هذه المجالات جميعها العديد من الدراسات وبعض الكتب ذات الأثر اللافت في المشهد الثقافي والأدبي والنقدي العربي، ككتابه الهام حول محمد مندور وكتابه النقدي حول الرواية العربية.

آخر للحرية، إذ ينقل الكاتب في شهوانية مفرطة علاقات مستترة يعيشها المجتمع المغربي في خفاء، وتعتبر نوعاً من التنفيس عن الرغبات المكتوبة في حيوات الأزواج أو بالنسبة للهاريين من النظام والأخلاق.

يقول محمد معتصم، الناقد المغربي الشهير عن كتابة محمد زفزاف في الجنس "إن محمد زفزاف لا يكتب في الجنس كتابة ساقطة، بل يكتب أدباً جميلاً يربأ بنفسه عن اللغة السطحية التي لا تنقل الجميل بل تقف عند العرض" (١) تظهر هذه الظاهرة الجنسية في معظم رواياته. إن روايته الشهيرة "المرأة والوردة" خير دليل لها. ففي القسم الأول من هذه الرواية يحدثنا السارد، بأسلوب تلقائي بسيط أقرب إلى أسلوب الحكاية الشعبية عن مغامراته الجنسية، بشكل مثير، «صمّنا وأحكمت شد خصري بقوة. وعندما لم أفعل مثلاً، انسحبت قليلاً، وأمسكت بذراعي، وضعتها خلف خصرها، فهمت إذ ذاك ماذا كانت تعني. تركت يدي راقدة فوق خصرها، ثم أمسكت ثوبها، وشعرت أن تحته جلدنا دافنا راغباً في الانتعاش، تركت الثوب ينزلق من بين أصابعي، ارتعشت، ووافقت على الانحدار إلى تحت» (٢).

من هناك يتوغل السارد المشارك في اختراق المحذور اجتماعياً ودينياً بدون تردد، لأن ذلك السلوك يساير في تصوره قانون الطبيعة. الجنس هنا أيضاً استعمله السارد كلغة للعكس عن مغامرته الجنسية. عالم الحب والحرية والجنس لدى الكاتب عالم يفعل فيه كل شيء بلا رقيب، عالم الآمال فيه واسعة وحب الحياة فيه كبير جداً، كما تقول روايته "الأفعى والبحر".

وكذلك يظهر الجنس في روايات محمد زفزاف كلغة فلسفية أيضاً. ربما تثير نزواتنا الشيطانية حينما نقرأ العبارات من النصوص. فالراوي يقول في روايته "الأفعى والبحر": فسلیمان يثيره في المرأة فحذاها وساقاها. كثيراً ما كان يتمنى لو يضع رأسه بين فخذين جميلين، ثم يعانقهما بذراعيه، ويظل على هذا الشكل أكبر وقت ممكن، ويقول سليمان نفسه: "إني أعبد فحذك". ويقول الناقد المغربي د/ حسن المودن في هذا الصدد: والسؤال الذي يمكن أن يطرحه أي قارئ هو: لماذا يعشق سليمان هذه المنطقة في الجسد كل هذا العشق؟ لماذا لا يثيره إلا الفخذان والساقان؟ لماذا يتمنى كثيراً أن يضع رأسه بين فخذين جميلين ثم يعانقهما بذراعيه ويظل على هذا الشكل أكبر وقت ممكن؟

لا شك في أن الأمر يتعلق هنا باستيهام الولادة الذي يبطن هذه الرغبة في العودة إلى عالم الرحم، ويمكن القول إن عالم البحر الذي تحتفي به الرواية ليس إلا عالم الرحم، وابن منظور في لسانه يقول: "البحر عمق الرحم". ومن أجل العودة إلى عالم الرحم حيث السكون والهدوء اللذين يحبهما سليمان، لابد من علاقة جنسية، ومن هنا كل هذه القيمة التي للجنس، ومن هنا دلالة انتهاء الرواية بعلاقة جنسية، فهذه العلاقة هي الطريق للعودة إلى بطن الأم، والأكثر من هذا أن الرغبة في الاغتصاب التي عبر عنها سليمان أكثر من مرة لا دلالة لها إلا في سياق هذه الرغبة الكبرى في العودة إلى عالم يبدو من المستحيل العودة إليه إلا عن طريق الاغتصاب. وبالطبع، فالأم، ورحم الأم، هنا صورة استعارية ترمز إلى ذلك العالم السحري العجيب، حيث التناغم التام بين عشيقين طبيعيين بعيداً عن كل مراقبة، بعيداً عن كل مقتضيات المدنية والحضارة" (٣).

خلاصة القول، التعبيرات الجنسية التي مارسها محمد زفزاف ليست لمجرد إثارة المشاعر الجنسية الإنسانية، بل تلك لغة في مستوى التعبير الفلسفي في كثير من الأحيان. وبعبارة أخرى، الحديث عن الجنس أو عن القهر الجنسي أو استعمال

١ محمد معتصم : محمد زفزاف . الكتابة الشغوفة (نسخة إلكترونية) نسخة ٢٠١٢ ص ١٤

٢ محمد زفزاف : المرأة والوردة . المركز الثقافي العربي . الدار البيضاء - المغرب . ط ١ ٢٠٠٧ ص ٣٢

٣ د/ حسن المودن " الناقد المغربي . " الرواية العائلية في رواية محمد زفزاف " مجلة نزوى العدد ٤٥ يناير ٢٠٠٦

<http://www.nizwa.com/articles.php?id=2453>

الكاتب للجنس كمستوى من مستويات تجلي الصراع المجتمعي، لم يكن مستوعبا وقتها . والحديث عن العلاقات العاطفية والتوترات الانفعالية للشخصيات القصصية كان وقتها يظهر نشاطا في سياق التحليل الواقعي المغربي والملتزم للأدب.

يقول الناقد المغربي محمد معتصم في هذا الصدد: أن الجنس في روايات محمد زفزاف ليس إلا لغة من اللغات المنسية المعتمدة في الإبداع الأدبي. ولا يراد الجنس لذاته كما في الكتابات الإباحية التي تجعل كل همها وصف التجربة الحميمة، وبالتوغل في الإستجابة للطابع اللزج للكتابة في الموضوع فتضفي عليه من خيالها الكثير. إن محمد زفزاف استعمل الجنس كلغة منسية، وجدت صداها في نفوس القراء. لأن الجنس محرم، ويعد من الطابوها الثلاثة المشهورة : الدين والسياسة والجنس. والدارس المتمعن لا يعثر على الأوصاف الدقيقة للعملية الجنسية الحميمة عند زفزاف بل يعثر على الإيهام بالعملية الجنسية باستعمال قرائن لغوية وصوتية وتلميحات. ولا يعد الجنس إلا بنية صغرى عرضية في السياق العام القصصي. ولا يُعد الهدف العام والاستراتيجي للكتابة (١).

في نهاية المطاف، يمكن القول: إن كتابات محمد زفزاف السردية تحاول أن ترصد كل الظواهر المجتمعية، ولذا تشغل على عالم سري يستحضر العديد من القواميس كما يعيشها الأفراد، ومن ثم فإن الأدب لا ينبغي أن يقف صامتا أمام كل التحولات المجتمعية، وإلا سيكون أدبا لا علاقة له بما يعيشه المبدع، إنه يحقق راهنيته من النقر على هذه العوالم والكتابة عنها، وبذلك ينقل كل التحولات التي تحدث على مستوى العلاقات الإنسانية. بدون أدنى شك، يمكن القول إن الجنس قد تم مراسه في روايات محمد زفزاف كلغة ولا غيرها.

المراجع المعتمدة

1. " عن الكتب " مجلة تعني بالإصدارات المغربية الجديدة وتتنصر للقراءة ' العدد 4-6 ' الخريف 2012.
2. <http://www.nizwa.com/articles.php?id=2453>
3. الإمارات الثقافية 'مجلة شهرية تعني بشؤون الثقافة والفكر' العدد 1 مايو 2012
4. مجلة نزوى ' العدد الخامس وأربعون
5. محمد زفزاف : المرأة والوردة ' المركز الثقافي العربي ' الدار البيضاء - المغرب. ط1 2007
6. محمد زفزاف : بيضة الديك ' المركز الثقافي العربي ' بيروت 2007
7. محمد معتصم . محمد زفزاف : الكتابة الشغوفة (كتاب إلكتروني) نسخة 2012م .
8. محمد معتصم ' محمد زفزاف الكاتب الكبير . منشورات رابطة أدباء المغرب . ط1. 2003 م . الرباط . المغرب
9. محمد معتصم "' محمد زفزاف ' الكتابة الشغوفة . نسخة 2009م (كتاب إلكتروني)